التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

٢ - سورة البقرة

عرض وتفسير

- ٦ -

للأستاذ عنتر أحمد حشاد
الموجه العام بوزارة التعليم

جـ - عرض عام للسورة :

القسم الرابع : ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة (الآيات من ١٣٥ الى ١٦٢) :

فى هذه الآيات (١) ، وما قبلها (٢) يتصل ذكر الخلف بذكر السلف، ويخرج الكلام من التلويح الى التصريح ، فتقرر هذه الآيات (٣) - فى جلاء صلة هذه الامة المسلمة بتلك الامة الصالحة (أمة ابراهيم عليه السلام) فى أصول ملتها ، وفى أهم فروعها ، وتقص علينا ما يحاوله سفهاء الاحلام (٤) من بنى اسرائيل وغيرهم - وقت البعثة - لحرمان المسلمين من تلك الصلة ، وذلك بدعوتهم المسلمين الى اتباع ملتهم تارة ، وبالطعن فى قبلتهم تارة أخرى ، وتكر على تلك المحاولتين بالهدم والاستئصال .

وقد رأيت الحديث الآنف (٥) كيف امتزج فيه ذكر ملة ابراهيم بذكر قبلته ، فانظر كيف كان ذلك تأسيسا قويا لما يبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم .

قال فى شأن الملة : ان أهل الكتاب يدعونكم - بعد هذا البيان - أن تكونوا هودا أو نصارى ، فقولوا لهم : بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا(٦)

---

(١) من ١٣٥ - الى ١٦٢ .
(٢) الآيات من ١٢٢ - الى ١٣٤ فى ذكر قدامى المسلمين من لدن ابراهيم عليه السلام ، كما بيناه فى العدد السابق .
(٣) الآيات من ١٣٥ - الى ١٦٢ (٤) خفاف العقول .
(٥) فى الآيات السابقة ، التى عرضناها فى العدد الماضى .
(٦) حنيفا : مائلا عن الباطل الى الحق ، والحنف : الميل .

وعرفوهم جلية الامر فى هذه الملة الحنيفية ، وأنها ايمان بالله وبما أنزل الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما أنزل من قبله الى رسل الله أجمعين ، لا نفرق بين أحد منهم فى أنه رسول الله يوحى اليه ، ولا بين كتاب الهى وكتاب الهى فى أنه نور وهدى من الله ، فالذين يؤمنون ببعض رسل الله ، ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض كتب الله ، ويكفرون ببعض (١) ليسوا بمؤمنين ، لان الله سبحانه ما أرسل رسولا الا مصدقا لمن سبقه من الرسل ، وما أنزل كتابا الا مؤيدا لما سبقه من الكتب فى أسس الاديان الالهية ، وهى العقائد ، وأصول العبادات ، وأمهات الفضائل والرذائل . ودعوة رسل الله فى هذه الاسس واحدة بقول سبحانه : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا (٢) قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم (٣) ونحن له مسلمون (٤) » .

---

(١) كاليهود والنصارى الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون . نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، نؤمن بموسى ، ونكفر بعيسى ومحمد ، ونؤمن بالتوراة ، ونكفر بالانجيل والقرآن ...

(٢) والمعنى : وقالت اليهود للمسلمين : كونوا يهودا تهتدوا الى الدين الحق ، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا الى الدين الحق ، هو ترديد لا دعائهم السابق فى آية ١١١ من السورة : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى » ومصداق لقول الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » من الآية ١٢٠ .

(٣) ولهذا قال سبحانه فى الآية ٤ فى وصف المتقين المهتدين : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » وقال فى آخر السورة فى الآية ٢٨٥ فى وصف المؤمنين : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » وفى آية ٨٤ من سورة آل عمران : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

(٤) فى ختام هذه الآية بقوله سبحانه : « ونحن له مسلمون » ما يرشد الى أن الايمان والتصديق بالله ورسله وكتبه لا يكون هدى ، ولا ينجى المؤمن الا اذا اقترن به اذعان المؤمن وقبوله واستسلامه وانقياده لمقتضى ما آمن به ، فالذى يصدق برسالة محمد ، أو برسالة أى رسول من غير أن يسلم ويستسلم لاحكامه ويعمل بما جاء به لاثمرة لايمانه ، ولهذا بدأ الله الآية بقوله : « قولوا آمنا » وختمها بقوله : « ونحن له مسلمون » والايمان التصديق ، والاسلام : الاذعان والعمل . .

هذه عقيدتنا بيضــاء ناصعة ، فأى ركنيها تنقمون منا ، وفى أيهما تخاصموننا : أفى الله وهو ربنا وربكم ، أم فى ابراهيم وبنيه ؟ وهل كانوا هودا أو نصارى ؟ « قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلونَ عما كانوا يعلمون (١) » .

وكان هذا الترديد ــ وحده ــ كافيا لافحامهم ، واغلاق الباب فى وجوههم من هذه الناحية ، اذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن تقبل الجدال فى شىء منها ــ فانتقل عنها وشيكا الى ابطال محاولتهم الاخرى فى مسألة (الكعبة المعظمة) التى عليها يدور العمل بشعيرتين هما أعظم شعائر الاسلام ، وأظهرها (الصلاة والحج) والتى قد تقرر ما لها من الاصل الاصيل فى الدين باتخاذ ابراهيم واسماعيل اياها مثابة ومصلى . ولكن هذا لم يكن كافيا لاسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين اليها ، وتركهم القبلة التى كانوا عليها ــ مطعنا على النبوة فتنوا به ضعفاء المؤمنين ، فمست الحاجة الى مزيد بســط فى شأنها تتقرر به الحجة ، وتدحض به الشبهة . ولذلك تراه يوجه اليها أكبر الشطرين من عنايته .

من الثابت أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين بعد أن هاجروا الى المدينة مكثوا نحو سبعة عشر شهرا يستقبلون فى صلاتهم بيت المقدس ، وكان هذا بتوجيه الله تعالى لهم ، ثم أمر الله رسوله أن يولى هو والمسلمون وجوههم فى الصلاة الى الكعبة ، وقد استغل ضعاف العقول من اليهود والمنافقين هذا التحويل ، وشنعوا على المسلمين ، واستنكروا هذا التقلب والتحول ، وقالوا على سبيل الانكار والتشنيع : « ما ولاهم (٢) عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، وقد رد الله تعالى عليهم الرد الحكيم ، فأمر نبيه بادىء ذى بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل جواب عزة واباء يردد الامر فيه الى من لايسأل عما يفعل ، قائلا لهم : ان الجهات كلها سواء ، يوجهنا الله منها الى

---

(١) من الآية ١٤٠ والآية ١٤١ .

(٢) ما الذى صرفهم وحولهم فى قبلتهم عن بيت المقدس الى الكعبة ؟

ما يشاء ، وهو الذى يهــدى الى الصراط المســتقيم « قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (١) » فالمشرق والمغرب وجميع الجهات والامكنة هى لله ، وهى بالنسبة اليه متساوية ، فله أن يأمر عباده بالتوجه فى عبادته الى أى جهة ، فان شــاء وجههم الى بيت المقدس ، لحكمة قصد اليها ، وان شاء وجههم الى الكعبة لحكمة قصد اليها ، وليس المقصود بالعبادة هو بيت المقــدس أو الــكعبة ، وانما المقصود وجه الله ، وأينما يولى المصلى وجهــه فثم وجه الله « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم (٢) » .

ثم أخذ يأمر النبى تارة ، والمؤمنين تارة ، ويأمرهما معــا تارة أخرى فى أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبــلة حيث هم ، وفى كل مكان يقيمون فيه حضرا ، وفى كل مكان يخرجون منه سفرا (٣) .

وطفق ينثر فى تضاعيف هذه الاوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد ، فيقول ان تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان الا اختبارا ليتبين من يتبع الرســول ممن ينقلب على عقبيه . وأما تشريع هذه القبلة الباقية فانه ينطوى على الحكم البالغة ، والمقاصد الجلية ، فهى القبلة الوسطى التى تليق بكم أيتها الامة الوسطى ، وهى القبلة التى ترضاها يأيها النبى ، والتى طالمــا قلبت وجهك فى السماء مستشرفا الى الوحى بها ، وهى القبلة التى يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم وان كانوا يكتمون ذلك حسدا وعنادا ، وهى القبلة التى يشهد الله بأنها الحق من عنده ، وأخــيرا هى القبلة التى لا تبقى لاحد من المنصفين حجة عليكم ، أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم فى شأنها ما بقيت عداوتهم لكم ، ولكن لا تخشوهم ، بل وطنوا أنفسكم على التضحية فى سبيل الله ، واصبروا ، ولا تحزنوا على من سيقتــل منكم فى هذه السبيل فان الموت فيها هو الحياة الباقية .

---

(١) من الآية ١٤٢ .   (٢) الآية ١١٥ من سورة البقرة .
(٣) فى الآيات ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠ .

ثم أومأ (١) الى أن الجدال فى هذه القبلة ليس صدا عن الشعائر التى فى داخل المسجد الحرام فحسب ، بل هو كذلك صد عما حوله من الشعائر ، صد عن السعى بين الصفا والمروة « ان الصفا والمروة من شعائر الله (٢) » •

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما فى تاريخ ابراهيم عليه السلام ، ولكنهم يكتمون ما أنزل الله من البينات وهم يعلمون •

عنتر حشاد

حفظ الله

عن أبى العباس : عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال لى : يا غلام انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء — لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله تعالى لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء — لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله تعالى عليك ، رفعت الاقلام ، وجفت الصحف » •

رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وفى رواية غير الترمذى : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » •

---

(١) أومأ : أشار .
(٢) من الآية ١٥٨ ، والصفا والمروة : هضبتان ملحقتان حاليا بالمسجد الحرام يسعى بينهما الحاج والمعتمر ، ومن شعائر الله : من علامات دين الله .